العلاقات المصرية الفينيقية حتى أوائل العصر البطلمي

ا.د. محمد السيد محمد عبد الغنى
أستاذ التاريخ اليونانى الرومانى - كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية

إن العلاقات بين مصر وفينيقيا* علاقات ضاربة في القدم وترجع إلي بداية عصر الأسرات الفرعونية . وأول مدينة احتلت مكانة مميزة في هذه العلاقات المصرية الفينيقية هي مدينة بيبلوس (جبيل أو جُبلة القديمة) التي عرفها المصريون القدماء باسم kpny ،وهي المدينة التي يفاخر تراثها بالاعتقاد السائد لديهم بأن مدينتهم هي أقدم مدن العالم وأن من أقامها هو الإله " إل " كبير آلهة مجمع الآلهة الكنعاني(١). ويعتقد بعض العلماء ويرجحون أن ملوك الأسرة الأولى الفرعونية استخدموا أخشاب بيبلوس في إقامة منشآتهم المعمارية وكذلك المنتجات الجانبية لهذا الخشب (خشب الأرز) مثل زيت الأرز ومادته الصمغية باعتبار أن خشب بيبلوس من أجود أخشاب المنطقة مما يخلد منجزات هذه الدولة الموحدة الناشئة(٢). كما أن هناك قرائن مكتوبة تفيد بأن الملك سنفرو من الأسرة الثالثة الفرعونية (٢٦٥٠ – ٢٥٧٥ ق. م.) استورد أربعين سفينة من خشب الأرز من بيبلوس لأعماله العمرانية وكذلك خمورًا وزيوتًا للتحنيط ، وكانت بيبلوس تستورد من مصر في مقابل ذلك الذهب والمصنوعات المعدنية ومادة الكتابة من ورق البردي (papyrus) (التي اشتهرت " بيبلوس " بتوزيعها – بعد استيرادها من مصر – لمناطق عديدة في البحر المتوسط حتى أن الإغريق أطلقوا اسم هذه المدينة التي كانت تبيع لهم الورق المصري على لفظة " الكتاب βιβλος " ، وظلت هذه اللفظة باقية في اللغة الإنجليزية للدلالة على " الكتاب المقدس ") . كما أن الملك خوفو أول ملوك الأسرة الرابعة (٢٥٧٥ – ٢٤٦٥ ق. م.) نقش اسمه على آنية من الالباستر وأرسلها كهدية إلى " سيدة بيبلوس " (إلهة جبيل التي شبهها المصريون بربتهم

* فينيقيا هي ذلك الجزء الذي يشغل الساحل اللبناني الحالي من أرض كنعان التي كانت تمتد على طول ساحل القسم الشرقي من البحر المتوسط وتضم سواحل سوريا ولبنان وفلسطين الحالية . وقد أطلق على هذا الجزء من الساحل الكنعاني اسم " فينيقيا " بدءا من القرن الثاني عشر ق.م. حين توطدت العلاقات بين سكان هذا الجزء من أرض كنعان مع الإغريق الذين أطلقوا عليهم هذا الاسم " فينيقيون " Φοινικες اشتقاقا من الصبغة الأرجوانية Φοινιξ التي اشتهروا بإنتاجها وتصديرها للشعوب المحيطة بهم ، وأطلق هذا الاسم كذلك على موطنهم " فينيقيا Φοινικη " . وقد اشتهرت هذه المنطقة من الساحل الكنعاني بهذا الاسم " فينيقيا " وأصبحت معروفة بهذا الاسم .

(1) Donald B. Redford , Egypt , Canaan and Israel in Ancient times , Princeton Univ. Press, 1992 , p. 38 .

(2) Ibid. ;S. Tawfik , Göttinger Miszellen 30 , 1978 , p. 79 .

حتحور[٣]) . كما يُذكر أن بحارة إحدى سفن خوفو قد فقدوا رأس بلطة بالقرب من مصب نهر أدونيس[٤].

ومن الواضح أن مصر قد تركت بصماتها الحضارية واضحة على بيبلوس منذ ذلك الزمن المبكر الذي انتظمت فيه العلاقات التجارية بين الطرفين ، وكانت هذه البصمات الحضارية واضحة بصفة خاصة في مجالات الأساليب والطرق الإنشائية والمعمارية التي شهدت ثورة تقنية في مصر في عصر بناة الأهرامات وهي تتجلى في عمارة معبد هناك من الألف الثالثة ق. م. أُعتُقد بأنه معبد مصري (٥) كما ظهر هذا التأثير المصري على فن وثقافة تلك المدينة على المدى الطويل : ففي المقابر الملكية في بيبلوس نجد أن حكام المدينة من العموريين كانوا يدفنون ومعهم بعض الأشياء المصرية منها صندوق من الأوبسيد المُحلى بالذهب ويحمل اسم الفرعون امنمحات الرابع (من الأسرة الثانية عشرة في أوائل القرن الثامن عشر ق. م.) مكتوب بحروف هيروغليفية من الفضة . كما عثر في مقبرة أخرى من مقابر بيبلوس الملكية على حلية صدر ذهبية تمثل الإله حورس التي يبدو – رغم تصميمها المصري الواضح – أنها صُنعت محليا لأن بها بعض التفاصيل الكنعانية[٦] .كما أن أمراء المدينة المحليين كانوا مغرمين بمصر التي كانت تتودد إليهم فكانوا يبدون كما لو كانوا " محافظين أو عُمداً " مصريين وكانوا يفاخرون بقدرتهم على كتابة نقوش بالخط الهيروغليفي . كما أن بيبلوس تركت بدورها بعض الأثر على الحضارة المصرية القديمة لا سيما بعض الأساليب الحديثة في بناء السفن – إضافة إلى الخبرة المصرية في هذا الصدد – إذ أضفوا (المصريون) على حتحور سيدة بيبلوس فضل البراعة في صناعة مجاديف السفن ، كما أن من بين أقدم الكلمات المصرية الدالة على السفن العابرة للبحار كلمة " سفينة بيبلوس " التي تدل على السفن التي كانت تقطع المسافة من مصر إلى الساحل اللبناني[٧].

ومن الجدير بالذكر أن هذه العلاقات الوثيقة المبكرة بين مصر وبيبلوس كانت ترتكز على قاعدة من المصالح المتبادلة المستنيرة والاحترام المتبادل من خلال تبادل الهدايا والعطايا بين المعابد والقصور في الجانبين لتوطيد أواصر التعاون بينهما[٨]. ولكن في مرحلة تاريخية لاحقة وفي عصر المملكة الوسطى ومن الأسرة الثانية عشرة تحديدا نجد تحولاً لنمط العلاقات الودي بين مصر وفينيقيا لتصبح هذه العلاقات قائمة على الإخضاع العسكري من جانب مصر للساحل الفينيقي . هذا التغير في نمط العلاقات يتضح من نقش هام من عصر الملك امنمحات الثاني (١٩٣٨ – ١٩٠٣ ق. م.) من الأسرة الثانية عشرة نُشر عام ١٩٨٠ [٩]يرد فيه

---

[3] فيليب حتي : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ترجمة د. جورج حداد وعبدالكريم رافق ومراجعة د. جبرائيل جبور ، دار الثقافة بيروت ، ص ١٣٦ – ١٣٧ ، وكذلك :
Michael Grant , The Ancient Mediterranean , Publications , Printing USA , 1988 , pp. 60 - 61 .
(4) D. Redford , op. cit. , p. 42 .
(7) D. Redford , op. cit. , pp. 38 - 40 , 43 .
(8) Ibid . , pp. 40 - 41.

(9) S. Farag , Revue d'Egyptologie 32 (1980) , pp. 75 ff. apud D. Redford , op. cit. , pp. 78 -79 .
(10) Ibid. , pp. 76 - 77.

ذكر حملات في عهد هذا الملك منها حملة لجلب بعض موارد سيناء وحملتين تأديبيتين لبعض المناطق الآسيوية ، ووصول بعض المتضرعين من مقدمي الإتاوات من كوس وربما من آسيا . ومن بين الحملات المذكورة في هذا النقش – وهي ما تعنينا في هذ المقام – حملة أرسلت إلى " خنتي – شي " (أي الساحل اللبناني) ، وهي حملة عادت في عشرة سفن وجلبت معها ١٦٦٥ وحدة من الفضة و ٤٨٨٢ وحدة من الذهب (؟) و ١٥٫٩٦١ وحدة من النحاس . وحتى قبل الكشف عن هذا النقش بوقت طويل رأى أحد العلماء – رغم قلة أو انعدام أي مادة مؤكدة عن ذلك – أن فراعنة الأسرة الثانية عشرة زعموا لأنفسهم – وغالبا ما مارسوا – السيادة على فلسطين وفينيقيا ومدوا نفوذهم حتى أو جاريت و قطنا بعد غزوهم لهذه المناطق(١٠).

ولكن لا ينبغي أن نتصور أن هذا النشاط العسكري المصري في هذه البقاع الآسيوية قد انطلق فجأة في عهد المملكة الوسطى ، بل لا بد له من سوابق أقدم ولعل أقدم الوثائق المتاحة لدينا في هذا الصدد هو نقش القائد " أوني " المدون على مقبرته التي في شكل مصطبة من أبيدوس والتي كشفها ماريت . لقد كان هذا الرجل قائداً للقوات تحت حكم ثلاثة من ملوك الأسرة السادسة (٢٣٢٣ – ٢١٥٠ ق. م.) هم تيتي وبيبي الأول ومرن رع (١١). وفي جزء من هذا النقش يتحدث عن حملة قام بها وهو في خدمة الفرعون بيبي الأول في فلسطين وسوريا وأن جيشه " عاد سالما " (وهو فعل مقترن عادة برجوع الجيش من الحملات الآسيوية في ظل الإمبراطورية المصرية هناك في عهد الدولة الحديثة) بعد أن حارب " سكان الرمال " الآسيويين بعد أن دمر أرضهم ودك حصونهم وقطع أشجارهم من تين وكروم وأشعل النار في قواتهم وقتل عشرات الآلاف منهم وأسر جموعا هائلة منهم (١٢).

ولنأتِ الآن للحديث عن فترة السيادة المصرية الراسخة والحقيقية على سوريا أو ما تُسمى بفترة الإمبراطورية المصرية في آسيا في عهد الدولة الحديثة في مصر من الأسرة الثامنة عشرة حتى ما بعد منتصف الأسرة العشرين (منذ حوالي ١٥٥٠ حتى حوالي ١١٢٠ ق. م.) والسيطرة المصرية على لبنان وسواحلها ضمن هذه الإمبراطورية . فبعد طرد الهكسوس من مصر وهو العمل الذي شارك فيه بعض ملوك الأسرة السابعة عشرة مثل سقنن رع وكاموس وأنجزه على الوجه الأكمل الملك أحمُس الأول أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة الذي استولى على عاصمتهم في شرق الدلتا " أفاريس " بعد حصار طويل ومعارك عديدة ثم تعقب فلولهم في سيناء وحاصر بقاياهم التي تجمعت في " شاروهين " – على ساحل البحر المتوسط جنوب غزة – لمدة ست سنوات حتى أسقطها واستولى عليها(١٣). ونجد صدى هذه الحملة المظفرة للقائد أحمس الأول الفرعون الشهير تتردد في الوثائق ونقوش المقابر

(11) James H. Breasted , Ancient Records of Egypt , reprint of London (Histories & Mystries of Man Ltd.) 1988 , vol. I , §§ 292 - 94 , 306 - 15 , 319 - 24 .
(12) Ibid. , § 313 .

(13) D. Redford , op. cit. , pp. 125 - 29 .

الخاصة بقادته وأركان حربه الذين شاركوا في هذه الحملة مثل أحمس سي إبينا القائد البحري وأحد نبلاء منطقة الكاب في مصر العليا الذين أدوا خدمات جليلة لملوك الأسرة الثامنة عشرة . يذكر هذا القائد على نقش مقبرته بعض تفاصيل حملة الفرعون أحمس الأول ضد الهكسوس ودوره فيها (١٤). كما أن قائدا آخر من نبلاء الكاب وأعوان الملك هو القائد أحمس با نيخيبت يذكر في مذكراته عن هذه الحملة وتوابعها أن جيوش الملك أحمس الأول قد وصلت في زحفها شمالا وراء الهكسوس حتى منطقة زاهي في سوريا (١٥) (والتي تعني السهل الفينيقي وفلسطين (١٦)) .

ولكن السيادة المصرية لم تتوطد تماما في سوريا إلا بعد الحملات الناجحة التي قام بها الفرعون المحارب المشهور تحوتمس الثالث ضد الهكسوس ومن حالفهم في ست عشرة حملة ناجحة خلال فترة حكمه (١٤٨٢ – ١٤٥٠ ق. م.)* وكان من أبرز معاركها ماجِّدو وقادش ونهارين ونتج عن هذه الحملات بسط سيطرته على فلسطين وفينيقيا وسوريا والميتانيين ، وجباية ضرائب وجزية كبيرة من هذه المناطق المقهورة بصفة منتظمة إضافة إلى الغنائم والأسلاب الضخمة من هذه الحملات (١٧). أما بخصوص منطقة لبنان – موضوع بحثنا – فإن تحوتمس الثالث بعد انتصاره الساحق في ماجِّدو عام ١٤٨٢ ق. م. والغنائم الهائلة التي حصل عليها (١٨)انطلق شمالا حيث استولى على ثلاث مدن في جنوب لبنان وحصل منها على غنائم كثيرة وبنى قلعة محصنة هناك (١٩). ثم نجد بعد ذلك في حملته الخامسة في عام حكمه التاسع والعشرين (١٤٧٦ ق. م.) تقدم قوات الملك شمالا لقمع ثورة في منطق زاهي في السهل الفينيقي واستولى على مدينة (تهشم اسمها في الوثيقة ولكنها مبدوئة بـ wa) وكانت هناك منطقة أو مدينة أخرى اسمها Tunip قد ساعدت هذه المدينة فقامت قوات الملك بدحرها وأسرت منها ٣٢٩ محاربا واستولت على كميات من الذهب والفضة وأحجار كريمة وغيرها . ثم استولى الملك على مدينة أرواد شمال بيبلوس وتحدث عن خيراتها الوفيرة – إذ تتجمع فيها منتجات كل إقليم " زاهي " – التي آلت إلى الملك وقواته المظفرة (٢٠) . وفي حملة الملك السادسة في عام حكمه الثلاثين (١٤٧٥) انطلق الملك بقواته بالبحر شمالا وهبط في " سيميرا " – وهي أقرب الموانيء إلى قادش – وذلك لمعاقبة " قادش " التي تزعمت التحالف المناوىء الذي هُزم في ماجِّدو قبل سبع سنوات والتي كانت تؤيد باستمرار تمرد وثورة مدن الساحل الفينيقي ضد السيادة المصرية ، كما فعلت " تونيب " في العام السابق . وقد استطاع الملك في حملته السادسة هذه

(14) J. H. Breasted , op. cit. , vol . 2 , §§ 1 - 16 , pp. 3 - 9 .
(15) Ibid. , § 20 .
(16) فيليب حتى . المرجع نفسه ، ص ١٣٨ ، هامش ١.
(17) J. H. Breasted , op. cit. , vol. 2 , §§ 391 - 540 , pp. 163 – 217.
(18) Ibid. , §§ 430 - 435 , pp. 184 - 87 .
(19) Ibid. , § 436 , pp. 187 - 88 and note l p. 187 ; § 548 p. 220 and note d .
* هذه الفترة تمثل السنوات التي حكم فيها تحتمس مصر منفردا بعد وفاة زوجة أبيه حتشبسوت التي حكمت نيابة عنه وشاركته اللقب الملكي في الفترة من ١٥٠٤ حتى وفاتها ١٤٨٢ ق. م.
(20) Ibid. , §§ 454 - 462 .

إسقاط " قادش " وعقابها عقابا صارما ، ولعب قائده امنمحب دورا في ذلك . ثم عادت قوات الملك إلى الأسطول في " سيميرا " واتجهت جنوبا إلى " أرواد " لعقابها كما في العام السابق . وعند عودة الملك المظفر إلى مصر أخذ معه أطفال أمراء منطقة فينيقيا لكي يعلمهم حب وصداقة مصر ثم يبعث بهم بعد ذلك بالتدريج ليحلوا محل جيل آبائهم المعادي لمصر من الأمراء السوريين [٢١]. وفي حملته السابعة في العام التالي (الحادي والثلاثين من حكم الملك ١٤٧٤ ق. م.) استمر الملك في إخضاع مدن الساحل الفينيقي شمالا – ومن الواضح أنه تقدم هنالك بحرا – واستولى على مدينة " أو للازا " وأخضعها – وهي مدينة تقع على مصب نهر الكِلب أو " ايليثروس " – وأخذ منها ٤٩٤ أسيرا وقدرا من الغنائم . ويروي الملك أنه أسقط هذه المدينة في وقت قصير وأصبحت أملاكها غنائم له [٢٢]. وبعد ذلك يواصل الملك المظفر حملاته القوية وتوسعاته حتى يصل بحدود إمبراطوريته إلى شمال شرق الفرات وإقامة لوحة حدودية عند كركميش التي تمثل الحد الشمالي الشرقي لإمبراطوريته بعد موقعة " نهارين " [٢٣] في الحملة الثامنة في العام الثالث والثلاثين من حكمه عام ١٤٧٢ ق. م. ثم يرد بعد ذلك في سجلات الملك طيلة حملاته السبعة عشرة ذكر مدن الساحل الفينيقي ومنطقة " زاهي " لإخضاع تمرد بعض أمرائها وتحصيل الجزية منهم[٢٤].

بعد ذلك ظلت مدن الساحل الفينيقي – مثل بقية سوريا – تحت السيادة المصرية حتى حول منتصف الأسرة العشرين بين مد وجزر حسب الظروف السياسية وحسب درجة قوة الفرعون الحاكم . فبعد فترة من الضعف انتابت السياسة الخارجية المصرية والفتوحات في عهد الملك أمنحتب الرابع (إخناتون) وأواخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة أعاد سيتي الأول وابنه رمسيس الثاني من ملوك الأسرة التاسعة عشرة خلال القرن الثالث عشر سياسة القوة والتوسع المصرية إلى سابق عهدها خصوصا بعد انتصار رمسيس الثاني على الحيثيين في موقعة " قادش " الشهيرة في أوائل سُني حكمه ، ثم استعاد السيطرة على الساحلين الفلسطيني والفينيقي بحلول السنة العاشرة من حكمه (حوالي ١٢٨٣/١٢٨٢ ق. م.) [٢٥]. ونجد لدينا في " سجلات مصر القديمة " التي نشرها بريستيد يوميات موظف حدودي مصري في فلسطين من السنة الثالثة من حكم الفرعون مرنبتاح الذي تلى رمسيس الثاني في حكم مصر في الأسرة التاسعة عشرة (١٢٢٣ ق. م.) . في هذه اليوميات يسجل هذا المشرف الحدودي المصري أسماء ومهام العابرين من هذه النقطة الحدودية إلى حدود فينيقيا (خصوصا مدينة " صور ") وسوريا . وأغلب العابرين المارين من هذه النقطة من العسكريين من قادة أو رُسل قادة قوات وحاميات المشاه ورماة السهام المصريين في هذه المناطق ومعهم رسائل إلى

(21) Ibid. , §§ 463 - 467
(22) Ibid. , §§ 468 - 470 and D. Redford , op. cit. , p. 158 .
(23) Breasted. , § 476.
(24) Ibid. , sec. 490 , 506 - 510 , 519 , 530 .
(25) D. Redford , op. cit. , pp. 180 - 188.

زملائهم القادة على الجانب الفينيقي أو السوري من الحدود أو إلى حكام مدن هذه المناطق [٢٦].

هكذا استمرت السيادة المصرية على فينيقيا حوالي أربعة قرون في عهد الدولة الحديثة من بداية عهد الأسرة الثامنة عشرة حتى حوالي منتصف الأسرة العشرين (عهد القوة والإمبراطورية المصرية في آسيا) حتى أواخر القرن الثاني عشر ق. م.، وفي النصف الثاني من عهد الأسرة العشرين بدأت[٢٧] مصر تفقد سيطرتها تدريجيا على هذه البقاع . وهناك وثيقة هامة تدل على مدى تدهور السيادة المصرية على فلسطين وفينيقيا في أواخر أيام الأسرة العشرين وربما بداية الأسرة الحادية والعشرين . هذه الوثيقة هي عبارة عن تقرير كتبه مبعوث من قِبل كبير كهنة آمون في طيبة – والمسيطر على مصر العليا – تحت حكم رمسيس الثاني عشر آخر ملوك الأسرة العشرين أوائل القرن الحادي عشر والذي كان ظل ملك ولا يتمتع بسلطة فعالة . إن هذا المبعوث المصري " وين آمون " كان قد أُرسل من قبل كبير كهنة آمون المذكور ويُدعى " حريحور " للحصول على أخشاب أرز من غابات لبنان لبناء قارب مقدس جديد للإله آمون ، وكان يحمل معه مقدارا من الذهب والفضة ثمنا للأخشاب . لقد واجه هذا المبعوث صعوبات جمة وظروفا حرجة للغاية اعترضت تنفيذ مهمته مما جعله يعد تقريرا وافيا عند عودته يشرح فيه هذه الظروف ، ويلقي الضوء على العديد من نقاط العلاقات المصرية الفينيقية في هذه المرحلة الحرجة . فبعد أن غادر هذا المبعوث طيبة وتوجه إلى تانيس عاصمة الدلتا التي كانت تحت سيطرة " نيسو بنيب د يد " الذي سيصبح أول ملوك الأسرة الحادية والعشرين ، ولقى معاملة طيبة هناك بعد أن أبرز ما يثبت هويته غادر مصر على سفينة تجارية يقودها قبطان سوري ووصل إلى منطقة " دور " التابعة لمملكة ثيكيل في فلسطين . وهناك اكتشف سرقة ما معه من ذهب وفضة واشتكى الأمر لأمير منطقة ثيكيل الذي لم ينصفه فانتظر تسعة أيام دون جدوى ثم غادر إلى صور ومنها إلى بيبلوس . وفي طريقه من صور إلى بيبلوس التقى بعضا من أهل ثيكيل ومعهم حقيبة بها مقدار من الفضة يساوى تقريبا ما سُرق منه فاستولى عليها تعويضا لما فُقد منه . ولما وصل إلى بيبلوس ولم يكن بالمظهر الفخم الذي يليق بمبعوث رفيع المستوى : إذ وصل على متن سفينة تجارية وليس على سفينة خاصة ولم يكن يحمل هدايا قيمة أو مظهر يليق بمبعوث ملكي مصري أو أوراق اعتماد تفصح عن هويته ، فإن أمير بيبلوس زكار بعل لم يعره اهتماما وأمره بالمغادرة . وأخيرا وبعد أن أمضى " وين آمون " حوالي تسعة عشر يوما في بيبلوس وكان على وشك مغادرة بيبلوس عائدا إلى مصر استدعاه زكار بعل إلى قصره المطل على شاطئ البحر " ووجدته جالساً في غرفته العليا متكئا بظهره إلى النافذة بينما أمواج البحر السوري تهدر خلفه " وأخذ أمير بيبلوس يستجوب المبعوث المصري ليتأكد إن كان حقا مبعوثا من كبير كهنة آمون وسأله عن أوراق اعتماده كمبعوث فأجابه بتفاصيل القصة وأوراقه التي تركها

(26) Breasted. , vol. 3 , §§ 629 - 635 .
(27) Ibid. , vol.. 4 , §§ 557 - 591 .

عند " نيسو بنيب ديد " حاكم الدلتا . وهنا قال زكار بعل " هناك بالتأكيد عشرون سفينة في مينائي على اتصال بـ " نيسو بنيب ويد " وفي صيدا التي ستذهب إليها هناك حقا عشرة آلاف سفينة متصلة بـ " بيركيب إل " (ربما كان تاجرا فينيقيا كبيرا مقيما في تانيس عاصمة الدلتا وقتذاك كما يرى إيرمان في الهامش لفقرة ٥٧٤) ، وهذا يعني أن زكار بعل سيستوثق من دقة معلومات " وين آمون " من خلال هؤلاء التجار الفينيقيين . ولما سأله " زكار بعل " عن الهدف من قدومه إلى بيبلوس رد المبعوث " لقد جئت من أجل الخشب للقارب العظيم والمهيب لآمون رع ملك الآلهة . لقد كان أبوك يفعل ذلك ، وكذلك جدك ولسوف تفعله أنت " فيرد الأمير أن ذلك كان يتم بالفعل ولكن كمبادلات تجارية مع مصر أي مقابل سفن محملة بالمنتجات المصرية ويؤكد ذلك بوثائق ، ويذكر أن أباه لم يكن يرسل الأخشاب كجزية للملك المصري وينفي تبعية مدينته لمصر . ويقول عن نفسه " وأما عني فلست خادما عندك ولا خادما لمن أرسلك " . هنا يتضح أن الأمير يتحدث عن الفترة القريبة التي سبقته والتي لم تعد لمصر فيها سيادة رسمية على بيبلوس وفينيقيا وأن علاقاتهما التجارية كانت قائمة على أساس من الندية والتكافؤ . ومع ذلك يعترف الأمير وينوه بفضل الحضارة المصرية وعلومها وفنونها التي علّمت الآخرين . ولكن المبعوث المصري – ورغم فترة الضعف التي مرت بها مصر آنذاك – أصرَّ أمام أمير بيبلوس على أن البحر ولبنان ملك لآمون ، وأن الأشجار تنمو فيها لبناء قوارب آمون سيد كل سفينة . ويذكّر الأمير بفضل آمون عليهم فهو الذي منحهم الحياة والصحة ويقول له إن آباءك أمضوا حياتهم يتعبدون لآمون ويقدمون له القرابين .

وبعد أن اطمأن أمير بيبلوس إلى صدق ما قاله المبعوث بخصوص مروره بالدلتا وأميرها في تانيس – من خلال مبعوث له إلى تانيس – ومن خلال ما أرسله " نيسو بنيب ديد " حاكم الدلتا إليه من ذهب وفضة وكتان وأوراق البردي وحبال وعدس وأسماك جهَّز أمير بيبلوس الأخشاب وأعدّها لكي تحمَّل على السفن إلى مصر . وبعد أن يتم كل ذلك ويتجه " وين آمون " إلى الشاطئ للمغادرة مع الأخشاب يفاجئ ببعض سفن الثيكيل متربصة به قرب الشاطئ تريد ترصده فجلس وظل يبكي ، وحين نما ذلك إلى علم الأمير أرسل كاتبه إلى المبعوث المصري ليُسَرّيَ عنه وأرسل له مغنية مصرية لتغني له وتزيح الهم عن قلبه وأرسل له طعاما وشرابا ، ثم توسط له لدى جماعة الثيكيل الذين كانوا يريدون من أمير بيبلوس إلقاء القبض عليه ربما لاستعادة ما سبق أن أخذه من فضة من زملائهم ، لكن الأمير امتنع عن إلقاء القبض على مبعوث آمون وطلب منهم أن يتعقبوه ولكن بعد مغادرته لشواطئ بيبلوس . وبعد مغادرة المبعوث المصري بيبلوس انحرفت سفنه إلى شواطئ قبرص حيث قابل مليكتها وهنا يتهشم نص الوثيقة .

إن ما نخلص به من تلك الوثيقة الهامة من تلك الفترة هو أن مصر بعد فترة المد والتوسع الإمبراطوري حتى حوالي منتصف القرن الثاني عشر ق. م. بدأت سطوتها تضعف تدريجيا حتى وصلنا إلى زمن هذا المبعوث في أوائل القرن الحادي

عشر ق. م. في هذا الوقت لا نجد لمصر أية هيبة أو سطوة سياسية أو عسكرية في فلسطين أو فينيقيا بدليل إساءة معاملة هذا المبعوث رفيع المستوى وسرقة ما معه واحتقاره ومخاطبته بصورة مهينة من قبل أمير بيبلوس . لكن رغم هذه الصورة القاتمة للوضع السياسي المصري هناك فإن من الواضح أن المبادلات التجارية المصرية الفينيقية كانت متصلة وجيدة ، ورغم افتقاد الهيبة المصرية هناك فإن نفوذ مصر المعنوي وعبق حضارتها القديمة وعلومها وعقيدتها وإلهها آمون كان لا يزال له تأثيره بين بعض حكام المنطقة . كما أن الشعور بالاستعلاء وبسيادة مصر – حتى بعد زوال هذه السيادة – كان لا يزال هو الإحساس المسيطر على المبعوث المصري رغم ما لقيه من هوان ، ولكنه إحساس بالسيادة الدينية والعقائدية لآمون بعد تهاوي السيادة السياسية .

إن فترة الضعف السياسي والعسكري المصري بدأت في واقع الأمر بعد حكم الفرعون الشهير رمسيس الثالث (ثاني ملوك الأسرة العشرين الذي حكم لمدة إحدى وثلاثين عاما ١١٩٨ – ١١٦٧ ق. م.) الذي يُعد آخر ملوك مصر العظام في عهد الدولة الحديثة إذ تصدى لشعوب البحر وهزمهم حوالي ١١٨٢ ق. م. وبعده بدأ الضعف في الحكم المصري وتسارعت وتيرته على أيدي خلفائه الذين حملوا جميعا لقب رمسيس وآخرهم هو رمسيس الثاني عشر الذي حدثت في عهده قصة المبعوث " وين آمون " . وبعد ذلك دخلت مصر في فترات ضعف واضمحلال بل وفقدان للإستقلال وحكمتها أسرات من الليبيين والنوبيين والأشوريين حتى الأسرة الخامسة والعشرين إلى أن استعاد المصريون حريتهم لبعض الوقت على أيدي ملوك الأسرة السادسة والعشرين (عصر النهضة) الذين جعلوا عاصمتهم " سايس " وأبرزهم ابسامتيك الأول وأمازيس اللذين استعانا بالمرتزقة الإغريق لتقوية جيشهم ، ثم احتل الفرس مصر أيام حكم قمبيز سنة ٥٢٥ ق. م.

نعود إلى المدن الفينيقية خلال تلك الفترة من الضعف المصري ونجد أن من بين أسباب انسلاخ بيبلوس عن النفوذ المصري – إضافة إلى ضعف الأخيرين كما يتضح من قصة المبعوث المصري " وين آمون " – أن بيبلوس – التي بقيت قاعدة للنفوذ المصري طيلة الألف الثاني ق. م. – قد غيّرت ولاءها إلى الآشوريين حوالي سنة ١١٠٠ ق. م. عندما غزا تيجلاث بيليسير الأول سواحل البحر المتوسط وفرض عليها الجزية . وكان يدفع هذه الجزية للأشوريين من بين المدن الفينيقية – إضافة إلى بيبلوس – " صيدا " في الجنوب و " أرواد " في الشمال . ولكن هذا الاعتراف بالسيادة الأشورية لم يكن يعني أن تلك السيادة كانت ثابتة ومستقرة بل كانت بالأحرى سيادة شكلية . وبعد بعض الوقت بدأت هذه المدن تتمتع بازدهار وتوسع تجاري وسياسي لما يقرب من ثلاثة قرون حتى حوالي منتصف القرن الثامن ق. م. ، وهي فترة بلغت فيها المدن الفينيقية أوج تقدمها ورفاهيتها . لقد حافظت المدن الفينيقية خلال هذه الفترة على هويتها الكنعانية ولم يتأثر استقلالها بالقوى السياسية المحيطة بها من آراميين ويهود (عبرانيين)

وفلسطينيين ، بل قامت علاقات تعاون وتجارة بين المدن الفينيقية وبعض هذه العناصر . إذ قامت علاقات تجارية بينها وبين الآراميين خلف جبال لبنان عبر ممرات هذه الجبال ومن خلال نهري الليطاني والكِلب على جانبي هذه الجبال . كما قام تعاون وتحالف بين صور ومملكة إسرائيل تحت حكم ملوكها الأوائل شاؤول وداود وسليمان – وخاصة الأخير – خلال القرن العاشر ق. م. وقد انعكست خبرة صناع صور وبيبلوس في بناء قصر وهيكل سليمان في أورشليم (القدس) وصبغهما بصبغة فينيقية ، إضافة إلى بنائهما بأخشاب من لبنان حملت بالبحر من صور إلى يافا ومنها بالبر إلى أورشليم .

لكن رغم ذلك (التعاون والعلاقات الإقليمية بين المدن الفينيقية وجيرانها) فإن جل نشاط المدن الفينيقية اتجه نحو البحر المتوسط أكثر منه نحو الداخل . وفي بداية هذه الفترة المزدهرة من التاريخ الفينيقي يبدو أنه كان لبيبلوس نوع من السيادة على صيدا وصور (كما يبدو في قصة المبعوث " وين آمون ") ، ولكن بعد ذلك عندما ازدادت أهمية هاتين المدينتين في مجال التجارة البحرية استفادتا من خبرة بيبلوس البحرية الطويلة ثم بدأت كل منهما – لا سيما صور – تتبوأ موقع الزعامة في هذا المجال بعد ذلك . إن مجال نشاط المدن الفينيقية في الاستيطان والتجارة في أرجاء البحر المتوسط من قبرص شرقاً حتى سواحل شمال غرب أفريقيا وجنوب أسبانيا وسواحل المحيط الأطلسي غربا طيلة هذه الفترة يُعد من الأمور الثابتة التي لا تحتاج لإسهاب . يكفي أن نذكر الشهرة الذائعة لهذه المدن في تجارة الأخشاب والملابس والصبغة الأرجوانية الفينيقية (التي أكسبت هذه المجموعة من المدن الكنعانية اسمها الذي اشتهرت به) . كما اشتهر الفينيقيون بالمهارة في الصناعات المعدنية إذ كانوا يجلبون الفضة من قيليقيا في آسيا الصغرى والنحاس من قبرص ويقومون بتصنيعهما وتصديرهما ، وكذلك بأساليبهم في الشغل البارز على الذهب وهو ما تعلموه من موكيني ومصر كما تعلموا عن مصر تحويل رمال الأنهار الناعمة إلى زجاج أخذوا يصدرونه بدورهم . لقد كان الفينيقيون يوظفون المهارة والفن الذي تعلموه وبرعوا فيه من أجل التصدير والكسب المادي في المقام الأول . أما فيما يتعلق بالملاحة البحرية فقد اشتهر الفينيقيون بالملاحة حتى في غير موسمها التقليدي في البحر المتوسط وهو الصيف إذ كانوا يبحرون شتاءً كما اشتهروا بالإبحار لمسافات طويلة بعيدا عن اليابسة وبالملاحة ليلا مسترشدين بالنجوم . ولعل من أبرز إسهامات الفينيقيين – إضافة إلى ذلك – هو الأبجدية الفينيقية المتطورة عن نماذج كنعانية مبكرة حتى وصلت إلى درجة نضجها ، وقد وصل هذا الأسلوب في الكتابة إلى الإغريق بعد العصر المظلم عقب الغزو الدوري فأخذوه في أبجديتهم وأضافوا إليه الرموز الدالة على الحروف المتحركة .

بعد هذه الفترة المزدهرة على كافة المستويات للمدن الفينيقية استعاد الأشوريين عافيتهم مرة أخرى في القرن التاسع ق. م. – بعد فترة من الضعف – وظلوا على قوتهم خلال القرنين الثامن والسابع ق. م. وأمام هذا المد الأشوري الجديد كانت صور وصيدا من المدن التي انحنت أمام العاصفة وكانت تدفع للملوك الأشوريين المتعاقبين إتاوتهم من الذهب والفضة والعاج والملابس الرقيقة المزركشة

. وزرعت آشور حكام موالين لها في المدن الساحلية والداخلية على السواء حوالي سنة ٧٤٠ ق. م. ، ورغم أن صور وصيدا كانتا تتمتعان بحق قطع الأخشاب في لبنان إلا أنه فرضت عليهما ضرائب تخزين هذه الأخشاب . ويذكر أن سارجون الثاني " منح السلام " لصور واستفاد " سنخريب " وآخرون من ملاحيها وسفنها ، إلا أن " إيسارهادون " (٦٨١ – ٦٦٩ ق. م.) دمر صيدا المتمردة وسمح للفنانين بتصويره ممسكا بأمير صور في المِقود . وفي نفس الفترة احتل الأشوريون مصر لمدة حوالي عشرين عاما حتى تخلص بسامتيك الأول أول ملوك الأسرة السادسة والعشرين من حكمهم حوالي عام ٦٦٠ ق. م. وبعد أن زالت الدولة الأشورية وسقطت عاصمتها " نينوي " حوالي عام ٦١٢ ق. م. نتيجة تحالف رعاياها الميديين والبابليين أخضعت صور بعد حصار طويل وخضعت صيدا من تلقاء نفسها لنفوذ البابليين الجدد في عهد " نبوخذ نصر " حوالي سنة ٥٧١ ق. م. وبعد ظهور قورش الأعظم مؤسس الدولة الفارسية وإسقاطه للدولة الميدية وعاصمتها " ايكباتانا " لحساب الفرس عام ٥٤٩ ق. م. ثم إخضاعه للبابليين الجدد عام ٥٣٩ ق. م. استمرت صيدا وصور في البقاء في كنف الدولة الفارسية المنتصرة وقدمتا لها – على مدى قرنين – خدمات كبيرة من خلال تزويدها بالبحارة والأساطيل [٢٨].

هكذا كانت مصر وفينيقيا تحت السيادة الفارسية لما يقرب من قرنين إلى أن قام الإسكندر الأكبر المقدوني (حكم من ٣٣٦ إلى ٣٢٣ ق. م.) بتحقيق حلم أبيه فيليب الثاني المقدوني في غزو الامبراطورية الفارسية والانتقام من الفرس بسبب اعتداءاتهم القديمة على بلاد اليونان ، وهو الحلم الذي قُتل فيليب دون تحقيقه . وفي إطار تحقيق الإسكندر الأكبر لهذا الإنجاز انتصر على الملك الفارسي داريوس الثالث في موقعتين هما " نهر الجرانيكوس " (شمال غرب آسيا الصغرى) عام ٣٣٤ ق. م. التي اجتاح على أثرها كل آسيا الصغرى ، و " إيسوس " (في أقصى الطرف الشمالي الشرقي على البحر المتوسط شمال سوريا) في أواخر العام التالي ٣٣٣ ق. م. التي فرَّ على أثرها الملك الفارسي إلى عاصمته وعرض على الإسكندر عرض صلح مغرٍ رفضه الإسكندر . بعد هذه المعركة استمر الإسكندر في إخضاع الأملاك الفارسية في القسم الشرقي من البحر المتوسط فسار جنوبا وأخضع المدن الساحلية السورية والفينيقية والفلسطينية خلال عام ٣٣٢ ق. م. وإن وجد صعوبة ومقاومة ضارية في إخضاع مدينتي " صور " و " غزة " وحاصر كل واحدة منهما أشهرا حتى أسقطها . بعد ذلك اتجه الإسكندر من البر من جهة الشرق إلى الغرب نحو مصر ، ولما كانت مصر تتوق إلى الخلاص من الحكم الفارسي المستبد الذي ثارت ضده مرارا دون جدوى فقد رحبت بالإسكندر كثيرا واعتبرته منقذا ومخلصا لا غازيا وتُوِّج الإسكندر فرعونا لمصر في معبد بتاح في منف أواخر عام ٣٣٢ ق. م. [٢٩] . وهكذا أصبحت فينيقيا ومصر ضمن

(28) Michaedl Grant , op. cit. , pp. 115 - 125 .

(29) M. C. Howatson , The Oxford Companion to Classical Literature , Oxford Univ. Press , 1989 , under : Alexander The Great .

إمبراطورية الإسكندر الواسعة التي وصلت بعد ذلك حتى حدود الهند شرقا بعد الانتصار الساحق والنهائي للإسكندر على داريوس الثالث في موقعة " جاوجاميلا " (أربيل شرق نهر الدجلة) عام ٣٣١ ق. م. وإسقاط الأمبراطورية الفارسية التي آلت بأسرها للإسكندر قبل وفاته بحمى الملاريا في بابل عام ٣٢٣ ق. م.

بعد وفاة الإسكندر الأكبر اندلع صراع بين قادته الذين خاضوا هذه الحروب معه بشأن تقسيم هذه الإمبراطورية الشاسعة فيما بينهم . وكان أبرز هؤلاء القادة المتنافسين – الذين حكموا ولايات هذه الإمبراطورية بصفتهم حكاما تابعين للسلطة المركزية الإمبراطورية بزعامة برديكاس ثم أنتيباتروس ، ثم كملوك لمناطقهم بدءاً من عام ٣٠٦ ق. م. – هم انتيجونوس الأعور (والي فريجيا الكبرى في آسيا الصغرى) وولده ديمتريوس ، ولوسيماخوس (طراقيا) ، وكاساندروس (مقدونيا واليونان) ، وبطلميوس (مصر وبرقة إضافة إلىمنطقة جوف سوريا التي تضم فلسطين وفينيقيا وجنوب سوريا الحالية) ، وسليوقوس (بابل). وفي الفترة من ٣١٩ حتى ٣٠١ ق. م. كانت السيادة البطلمية (دولة البطالمة في مصر) على جوف سوريا مزعزعة إذ انسحب منها بطلميوس الأول سوتير ثلاث مرات وعاد إليها خلال نزاعه المتصل مع انتيجونوس الأعور وولده على ملكية هذه المنطقة . وبعد أن أعلن هؤلاء القادة أنفسهم ملوكا على المناطق التي يحكمونها عام ٣٠٦ ق. م. احتدم الصراع بين انتيجونوس من ناحية وبقية هؤلاء القادة الملوك من ناحية أخرى بسبب أطماع أنتيجونوس التوسعية في إمبراطورية الإسكندر كلها ولذلك تكاتف بقية الملوك المذكورين ضده . وقد دارت بين الطرفين موقعة حاسمة في " إبسوس " (في فريجيا بآسيا الصغرى) عام ٣٠١ ق. م. هُزم فيها أنتيجونوس وقُتل ، وفرَّ ابنه ديمتريوس إلى ايفسوس . في هذه المعركة تكوَّن التحالف المضاد لانتيجونوس من كافة القادة المذكورين باستثناء بطلميوس ملك مصر الذي لم يشارك في هذه المعركة وتفرغ لاسترداد جوف سوريا من انتيجونوس مستغلا انشغال الأخير في حربه مع الملوك المتحالفين ضده . وقد استولى بطلميوس على " جوف سوريا " أثناء ذلك ولكنه سرعان ما انسحب منها إثر سماعه شائعة كاذبة عن انتصار أنتيجونوس على التحالف المضاد . وعلى أثر موقعة " إبسوس " أعاد القادة المنتصرون توزيع إمبراطورية الإسكندر على نحو جديد فيما بينهم كالتالي : كاساندروس في مقدونيا واليونان ، ولوسيماخوس في آسيا الصغرى ، وسليوقوس في بابل وسوريا (ومنطقة جوف سوريا) ، أما بطلميوس فلم يتركوا له في اتفاقهم سوى مصر (إذ حكم برقة واستقل بها أخوه ماجاس) . لكن بطلميوس لم يعترف بهذا التقسيم الجديد للقادة الملوك وأرسل قواته على وجه السرعة إلى جوف سوريا واحتلها للمرة الرابعة بعد موقعة " إبسوس " ، لكن سليوقوس تمسك بحقه الرسمي الذي منحه له التحالف وإن لم يتخذ خطوة إيجابية لاسترداد جوف سوريا (٣٠).

---

(٣٠) مصطفى العبادي ، العصر الهللينستي (مصر) ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ٣٢ – ٤١.

من هنا فإن اتفاق عام ٣٠١ ق. م. بين القادة المنتصرين في " إيسوس " هو السبب المباشر في خلق ما يُسمى " المسألة السورية " بين مملكتي البطالمة والسليوقيين واندلاع " الحروب السورية " بينهما ، وهي خمسة حروب دارت بين الطرفين على مدى القرن الثالث ق. م. بسبب صراع المصالح بين الطرفين في آسيا الصغرى وبحر إيجة والصراع – قبل كل شيء – على تبعية منطقة جوف سوريا – التي كان من بين مناطقها فينيقيا – لأي من المملكتين . وقد بدأت هذه الحروب في عهد بطلميوس الثاني فيلادلفوس (٢٨٥ – ٢٤٦ ق. م.) الذي دارت فيه الحربان الأولى والثانية وكان النصر فيهما سجالا بين الطرفين ولم تحسم لمصلحة أي منهما وانتهى الأمر بزيجة سياسية بين الملك أنطيوخوس الثاني وابنة فيلادلفوس في أواخر سنوات حكم الأخير بعد صلح بين الملكين أبقى للملك البطلمي السيادة على جوف سوريا . أما الحرب الثالثة فتمت في أوائل حكم بطلميوس الثالث " يو إرجيتيس " (٢٤٦ – ٢٢١ ق. م.) وأسفرت عن نصر مؤزر للملك البطلمي جعله يصل إلى " سليوقية " على نهر الدجلة لكنه اضطر للعودة إلى مصر بسبب تمرد المصريين إثر انخفاض فيضان النيل في ذلك العام . والحرب الرابعة كانت في عهد " بطلميوس الرابع / فيلوباتور " (٢٢١ – ٢٠٥ ق. م.) وفيها انتصر الجيش البطلمي على الجيش السليوقي بزعامة الملك السليوقي القوي الشاب انطيوخوس الثالث في معركة " رفح " الشهيرة سنة ٢١٧ ق. م. والتي يعود الفضل فيها إلى الجنود المصريين المحاربين في الجيش البطلمي . ولكن مع بداية عصر الضعف البطلمي في عهد خامس ملوك البطالمة " ابيفانيس " (٢٠٥ – ١٨٠ ق. م.) – الذي تولى العرش وهو طفل في الخامسة وكان الأوصياء على عرشه فاسدين – انتصر الملك السليوقي أنطيوخوس الثالث على الجيش البطلمي في موقعة " بانيون " في شمال فلسطين عام ٢٠٠ ق. م. وثأر لهزيمته في " رفح " وأنهى سيادة مصر نهائيا على جوف سوريا [٣١].

خلاصة القول أن جوف سوريا – ومن بينها فينيقيا – بقيت تحت سيادة ملوك البطالمة في مصر طيلة القرن الثالث ق. م. حتى آلت إلى أملاك الدولة السليوقية بعد موقعة بانيون عام ٢٠٠ ق. م. ، كما كانت قبرص كذلك تحت السيادة البطلمية طيلة هذا القرن الثالث ق. م. وظلت كذلك حتى انضمت إلى الدولة الرومانية في أواخر عصر الجمهورية الرومانية سنة ٥٨ ق. م. حين تنازل عنها بطلميوس الثاني عشر الزمار رغم انتحار أخيه ملك قبرص .

في خلال فترة السيادة البطلمية في القرن الثالث ق. م. عاود الفينيقيون نشاطهم التجاري مع المناطق المجاورة لهم في إطار الدولة البطلمية ، أي مع مدن الساحل الفلسطيني وقبرص ومصر . ولدينا حفنة من وثائق أرشيف زينون وكيل أعمال أبوللونيوس وزير مالية الملك بطلميوس الثاني فيلادلفوس (٢٨٥ – ٢٤٦ ق. م.) تشير إلى بعض من الأنشطة التجارية وغيرها التي مارسها وزير المالية

[٣١] مصطفى العبادي ، المرجع نفسه ، ص ٥٥ – ٧٩ .

البطلمي – من خلال شبكة من الوكلاء والمندوبين في مناطق الإمبراطورية البطلمية – ولا سيما هنا المدن الفينيقية . هذا النشاط التجاري بين المدن الفينيقية وجيرانها لم يقتصر بالتأكيد على زمن ثاني ملوك البطالمة بل استمر قبله وبعده وإن لم يكن لدينا من أدلة وثائقية على ذلك بخلاف هذه الحفنة من وثائق أرشيف زينون .

من بين هذه المجموعة القليلة من الوثائق التي ورد بها ذكر المدن الفينيقية ما يلقي الضوء على المعاملات التجارية . ولعل من أهم هذه الوثائق خطاب من أحد معاوني زينون الكبار في فينيقيا ويدعى هيراكليتوس ، والخطاب عبارة عن تقرير عن أنشطة شبكة تجارية من الوكلاء والمندوبين في فينيقيا وفلسطين يشرف عليهم زينون ويعملون لصالح أبوللونيوس وزير المالية [٣٢]. ومن بين من يذكرهم من أفراد الشبكة شخص يُدعى أبوللوفانيس يقول هيراكليتوس أنه قد وصل إلى سوريا (يقصد جوف سوريا الخاضع للسيطرة البطلمية) وأنه التقى به في " صيدا " وأخبره أن كروتوس (مندوب آخر) في انتظاره في " يافا " لينتهز الفرصة لتصدير ..... والمراتب (الحشيات) ، ولكن أبوللوفانيس اعتذر عن عدم استطاعته الإبحار إلى هناك في ذلك الحين لأن ديونيسيدوروس (وكيل آخر) قد طلب إليه أن يحضر بضاعته إلى هيراقليا (في فينيقيا) [٣٣] . ثم ينتقل هيراكليتوس في جزء لاحق من تقريره إلى موضوع آخر في نفس سياق النشاط التجاري لهذه المجموعة من المعاونين لزينون في مجال أعماله ، هذا الموضوع يتعلق بموقف حرج وقع فيه وتسبب فيه أحد أفراد هذه الشبكة التجارية ويُدعى مينيكليس " الصوري " . لقد جلب مينيكليس عبيداً وبضاعة أخرى من " غزة " إلى " صور " تمهيدا لإعادة نقلها إلى مكان آخر ولكن دون أن يخطر موظفي الجمارك في صور ودون أن يحصل على تصريح بتصدير العبيد . ولما علم رجال الجمارك بذلك صادروا منه العبيد ، ولذلك توسط أبوللوفانيس في الأمر بالقول بأن العبيد والبضاعة تخص زينون وأمَّن مينيكليس على كلامه من أجل استرداد العبيد[٣٤]. هذه المحاولة من جانب رجال أبوللونيوس وزير المالية لتهريب العبيد والبضائع والتحايل على رجال جمارك صور توحي بأن توكيل هؤلاء المندوبين لإنجاز هذه المهام والأنشطة التجارية والعملية من قِبل زينون لم يكن توكيلاً صريحاً بحيث يستطيعون استخدام اسم وزير المالية أو وكيله في صفقاتهم في أي وقت . لقد كان عمل هؤلاء المندوبين يبدو كما لو كان نشاطا فرديا حراً . وواضح أنهم لم يكونوا يستخدمون

(32) P. Cairo Zenon (P.C.Z.) I . 59093 , 257 B.C.

(33) Ibid. , ll. 5 - 9 :

παρ] εγενετο δε και 'Απολλοφανης εις Συριαν , | και αποδημουντες ημεις εις Μασσυαν [συνηντωμεν] αυτωι εν Σιδωνι και ανηγγελλομεν | οτι Κροτος εν 'Ιοπηι εστιν βουλομενος σ . [. . . . .] εξαποστειλαι και στρωματα · | ουκ εφη ουν δυνασθαι ουκετι παραπλ[ειν · συντεταχ] θαι γαρ υπο Διονυσοδωρου | την αποσκευην αυτωι απαγειν ε[ις Η] ρακλειαν

(34) Ibid. , ll. 10 - 15 :

και Μενεκλης δε ο εν Τυρωι | εφη σωματια τινα και φορτια αγαγω [ν] αυτος εκ Γαζης εις Τυρον | μετεξελεσθαι εις Τυρον , ου προσαγγει [λαν]τα τοις τελωναις ουδε εχοντα | εξαγωγην των σωματων , τους δε αισθομενους στερησαι αυτον · παραγενομενος | ουν ο 'Απολλοφανης προς τον Μενεκλην εφη τα τε σωματα και τα φορτια σα ειναι . | διο και αντελαβετο αυτου ο Μενεκλης .

اسم صاحب الصفقة الحقيقي إلا إذا تعرضوا لمواقف حرجة تستدعي تدخل هذه الشخصيات الهامة مثل زينون أو أبوللونيوس الذين كان مجرد ذكر اسمهم – فيما يبدو – كفيلا بحل الأزمة أو رفع الحرج .

ويبدو أنه حتى خارج مجال أعمال كبار رجال الإدارة البطلمية والاحتكارات الملكية البطلمية المعروفة كان هناك نشاط تجاري حر يمارسه تجار عاديون ويحاول بعضهم أحيانا التهرب من بعض قيود الاحتكارات الحكومية والجمركية . فمثلا كان لأبوللونيوس وزير المالية ضياع في بيسان بالجليل في فلسطين وكان القمح من أهم منتجاتها وكان قمحها يُصدّر من عكا ، ولذلك كانت تفرض قيود على المنتجين الآخرين للقمح حتى يظل وزير المالية محتكرا لقمح هذه المناطق . لذلك كان بعض المنتجين يلجأون إلى تهريب قمحهم وتصديره من مواني‌ء أخرى مثل " صيدا " ، ومن هنا أصدر أبوللونيوس أوامره لموظفيه هناك لتعقب هؤلاء المهربين وتحصيل ثمن القمح المهرب من التجار والمنتجين(٣٥).

كانت هناك إذن اتصالات تجارية كبيرة بين المدن الفينيقية والفلسطينية سواء بالبحر أو بالبر عن طريق قوافل الجمال . وهناك مثال على هذا الاتصال البري بين فلسطين وكل من مصر وفينيقيا عن طريق قوافل الجمال يتمثل في وثيقة من بردى زينون يبين كاتبها بعض أرباح قافلة من قوافل الجمال من غزة إلى مصر وفينيقيا . في إحدى فقرات هذه الوثيقة يذكر كاتبها أن اثنين من جمال هذه القافلة كانا عائدين فارغين من صيدا إلى غزة – ربما كانا محمّلين على الأرجح بسلع من غزة إلى صيدا في طريق الذهاب – فآثر أصحابهما تحميلهما بحمولة من الطوب الآجر (القرميد) نظير عشرة دراخمات . ربما كانت هذه الجمال ضمن شركة نقل بري بالجمال تابعة لأبوللونيوس ويشرف عليها زينون مقرها غزة وتنقل السلع شمالا إلى فينيقيا وجنوبا فغرباً إلى مصر(٣٦). وفي وثيقة أخرى من بردى زينون نجد مبعوثا تجاريا ملكيا أُرسل إلى منطقة هيراقليا في فينيقيا للمتاجرة في البسط والسجاد المصنع في إحدى مناطق الدلتا المصرية(٣٧). وهناك شذرة من هذه الوثائق تتحدث عن بيع أحد خيول السباق وربما مراسي سفن (؟) في صيدا(٣٨) كما يُذكر في وثيقة أخرى بعض المبالغ المالية التي تسلمها أحد الوكلاء التجاريين

(35) Jr. Harper , " A Study in the Commercial Relations between Egypt and Syria in the Third Century B.C." American Journal of Philology , 49 , 1928 , pp. 1 - 35 , pp. 2 - 5 and P. S . l . 325 .

(36) P. Columbia Zenon , vol.. I. 2 , 259 B.C. , ll . 1 - 5 :
δυο καμη[λων] (δραχμας) ξδ · | εξ Σιδωνος πορευθεντες | εις Γαζαν κενοι ελαβοσαν | παρα Ζηοδωρου | πλινθοφορουντες (δραχμας) ι .

(37) P. Cairo Zenon , vol. I. 59088 , 258/57 B.C. , ll. 7 - 10 :
[L κη Πανημου] ιε εν τηι Νικιου | [Δημτριωι] αποστελλομενωι | [υπο του βα]σιλεως εις Ηρακλεια[ν] [την ε]μ Φοινικηι II , II Ψιλαι ζ

(38) P. C. Z. , vol. IV . 59672 , not-dated :
εν Σιδωνι σοσ · πετρ [| επι του κελητος τ · | και παρα Πυρριου χαλ | · | και σαλουσων τιμη . . παρ' 'Αριστωνο[s] εν Συριαι | ν | /αργυριου | σκα = | χαλκου | ε .

وأنفقها في أثناء سفرياته بين الإسكندرية وساحل منطقة جوف سوريا حيث زار مدن صيدا وعسقلان ، ويوضح في بقية الوثيقة بعض أوجه الإنفاق وبعض السلع من تين وورق وشعير وحقائب ومصابيح [٣٩].

وبالإضافة إلى هذه الأنشطة التجارية المذكورة في هذه العينة من الوثائق هناك أنشطة من نوع آخر إدارية وغيرها بين مناطق الدولة البطلمية التي تدار من مركزها من الإسكندرية بمصر وتشمل أطرافها في جوف سوريا (جنوب سوريا وفلسطين وفينيقيا) وجزيرة قبرص . في هذه الوثائق نجد مثلاً أحد الكتبة التابعين للإدارة البطلمية في جزيرة قبرص وقد ذهب إلى فينيقيا في مهمة رسمية – فيما يبدو – إذ حصل على بدل سفر عن مهمته . ولكن يبدو أنه أنفق هذا البدل على مشترياته في " صور " ، لذلك يرجو هذا الكاتب من زينون أن يرسل إليه ١٥٠ دراخمة في " بيروت " مع حامل الرسالة [٤٠]. وفي وثيقة أخرى نجد شخصاً يُدعى " ثيودوتوس " ووظيفته في الوثيقة هي " حاكم صيدا " ويرد في الوثيقة بعد ذلك ذكر " جرة من العسل الاتيكي وعطر برائحة الورد " [٤١]والتي ربما كانت هدية من حاكم صيدا (الذي لا ندري إن كان حاكما عسكريا أو موظفا مدنيا تابعاً للإدارة البطلمية) لوزير المالية أبوللونيوس كما يقترح ناشر الوثيقة . ويبدو أن سكان المدن الفينيقية تأقلموا مع السيادة البطلمية بحيث صار منهم موظفون يعملون في الإدارة البطلمية سواء في موطنهم (هامش ٣٤ أعلاه : مينيكليس الصوري) أو حتى في مصر إذ نجد أحد أفراد حاشية الوزير أبوللونيوس (يُدعى هيديلوس بن ديون الصوري) يقوم ضامناً على عقد إيجار لقطعة من ضيعة أبوللونيوس في فيلادلفيا بالفيوم[٤٢].

ولعل من أطرف وأهم الوثائق من أرشيف زينون والتي نختتم بها حديثنا حول هذا الموضوع رسالة يبعث بها أرتيميدوروس طبيب أبوللونيوس وزير المالية إلى زينون وكيل أعمال أبوللونيوس يحدثه فيها عن عودته هو وسيده أبوللونيوس إلى مصر بعد قيامهما باصطحاب موكب الأميرة بيرينيكي ابنة الملك فيلادلفوس حتى الحدود السورية التابعة للسليوقيين (بعدما قام والدها الملك بمصاحبتها حتى بيلوزيوم / الفرما في حدود مصر الشمالية الشرقية) لتتزوج الملك السليوقي

(39) P. C. Z. I. 59010 , 259 B. C. , ll. 5 - 13 , 22 and the rest of the document .
και οτε επλεις εις Αλε– | ξανδρειαν |υκ ll. 10 - 11 ; [α]s εις Σιδωνα |ξ ll. 13 .
αλλας |η ας εν ′Ασκαλωνι | αλλας καμηλων |κδ l. 22 .

(40) P. C. Z. I. 59016 , 259 B. C. , ll. 1 - 3 R. :
Δημητριος Ζηνωνι χαιρειν· εν τηι Τυρωι αγορασματα τινα | λαβων ανηλωκα το εφοδιον· καλως αν ουν ποιησαις δους Νικαδαι | τωι τα γραμματα σοι αποδεδωκοτι |ρν·
ll. 4 - 5 : φροντι|σον δε ινα και τον Νικαδαν αποστειλης εις ηρυτον μετ′ ασφαλειας .
verso : παρα Δημητριου του | εν Κυπρωι γραμμα– | Τεως αργυριου |ρν .

(41) P. Michigan Zenon 3 , not-dated :
παρα Θεοδοτου | του εκ Σιδωνος αρχοντος | μελιτ[ο]s ′Αττικου | σταμνος α | μυ[ρο]υ ρο[δινου

(42) P. C. Z. IV . 59666 , not-dated , ll. 5 - 6 :
εγγυοι των κατα τ[ην συγγραφην]| εις [ε]κτεισιν οι συγγεγραμμενοι αλληλων και ′Ηδυλος Διωνος Τυριος τ[ων περι ′Απολλωνιον] τον διοικητην .

أنطيوخوس الثاني الذي انتصر على فيلادلفوس في الحرب السورية الثانية على سواحل آسيا الصغرى وجزر بحر إيجة وجرِّد مصر من أملاكها هناك وانتهى الأمر بصلح بين الطرفين بهذه الزيجة السياسية عام ٢٥٢ ق. م. في هذه الرسالة إلى زينون يذكر الطبيب ارتميدوروس أنه كان في طريق عودته وسيده أبوللونيوس من حدود السليوقيين في سوريا عائدًا إلى منطقة جوف سوريا (التابعة للحكم البطلمي) ومنها إلى صيدا التي سيعودان منها إلى الإسكندرية بعد إنجاز مهمتهما (٤٣).

الملحوظة الأخيرة التي يمكن أن نبديها على هذه الحفنة من وثائق زينون الخاصة بفينيقيا هو الدور الكبير نسبيا الذي لعبته مدينة " صيدا " بين المدن الفينيقية في العلاقة مع الإدارة البطلمية مقارنة بالمدن الفينيقية الأخرى التي تظهر بشكل طفيف في هذه الوثائق مثل " صور " و " بيروت " و " هيراقليا " .

لعل هذا المسح السريع للعلاقات المصرية الفينيقية في العصور القديمة يكون قد ألقى ضوءاً معقولاً على تواصل وخصوصية هذه العلاقة في مراحل كثيرة من العصور القديمة التي يتناولها البحث .

(43) P. C. Z. II . 59251 , April 252 B. C. , ll. 2 - 3 :
οτε δε σοι εγραφον , παρεγινομεθα εις Σιδωνα , συμπεπορευμενοι τηι βασιλισσηι | εως των οριων , και υπελαμβανομεν ταχεως παρεσεσθαι προς υμας .